

تفسير السعدي

@ 427 ^ (ربي إنهن أضللن كثيرا من الناس) ^ أي : ضلوا بسببها ، ! 2 2 ! على ما جئت به من التوحيد والإخلاص □ رب العالمين ! 2 2 ! لتمام الموافقة ومن أحب قوما واتبعهم ، التحق بهم . ! 2 2 ! وهذا من شفقة الخليل ، عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من □ ، و□ تبارك وتعالى ، أرحم منه بعباده ، لا يعذب إلا من تمرد عليه . ! 2 2 ! وذلك أنه أتى ب (هاجر) أم إسماعيل وبابنها إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، وهو في الرضاع ، من الشام ، حتى وضعهما في مكة ، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ، ولا داع ، ولا مجيب ، فلما وضعهما ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فقال متضرعا متوكلا على ربه : ! 2 ! 2 ! أي : لا كل ذريتي ، لأن إسحق في الشام ، وباقي بنيه كذلك ، وإنما أسكن في مكة ، إسماعيل وذريته ، وقوله : ! 2 2 ! أي : لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء . ! 2 2 ! أي : اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية ، فمن أقامها ، كان مقيما لدينه ، ! 2 2 ! أي : تحبهم ، وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه . فأجاب □ دعاءه ، فأخرج من ذرية إسماعيل ، محمدا صلى □ عليه وسلم ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي ، وإلى ملة أبيهم إبراهيم ، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة . وافترض □ حج هذا البيت ، الذي أسكن به ذرية إبراهيم ، وجعل فيه سرا عجيبا ، جاذبا للقلوب ، فهي تحبه ، ولا تقضي منه وطرا على الدوام ، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ، ازداد شوقه ، وعظم ولعه وتوقه ، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة . ! 2 2 ! فأجاب □ دعاءه ، فصار يجيى إليه ، ثمرات كل شيء ، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت ، والثمار فيها متوفرة ، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب . ! 2 2 ! أي : أنت أعلم بنا منا ، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا ، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها ، والتي لا نعلمها ، ما هو مقتضى علمك ورحمتك ، ^ (وما يخفى على □ من شيء في الأرض ولا في السماء) ^ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير ، وكثرة الشكر □ رب العالمين . ! 22 ! فذلك من أكبر النعم ، وكونه على الكبر ، في حال الإيأس من الأولاد ، نعمة أخرى ، وكونهم أنبياء صالحين ، أجل وأفضل ، ! 2 2 ! أي : لقريب الإجابة ، ممن دعاه ، وقد دعوته ، ولم يخيب رجائي ، ثم دعا لنفسه ولذريته . فقال : ! 2 2 ! ، فاستجاب □ له في ذلك كله ، إلا أن دعاءه لأبيه ، إنما كان من موعدة وعده إياه ، فلما تبين له أنه عدو □ ، تبرأ منه . ^ (ولا تحسبن □ غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) ^ ثم قال تعالى : ! 2 2 ! إلى ! 2

2 ! . هذا وعيد شديد للظالمين ، وتسليّة للمظلومين . يقول تعالى : ! 2 2 ! حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلبون في البلاد ، آمنين مطمئنين ، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم ، فإن ا^ يملئ للظالم ويمهله ، ليزداد إثما ، حتى إذا أخذه ، لم يفلته ^ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) ^ ، والظلم ههنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه ، وظلمه لعباد ا^ ، ! 2 2 ! أي : لا تطرف من شدة ما ترى ، من الأهوال وما أزعجها من القلاقل . ! 2 2 ! أي : مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي ا^ للحساب ، لا امتناع لهم ولا محيص ، ولا ملجأ ، ! 2 2 ! أي : رافعيها قد غلت أيديهم إلى الأذقان ، فارتفعت لذلك ، رؤوسهم ، ! 2 2 ! أي : أفئدتهم فارغة من قلوبهم ، قد صعدت إلى الحناجر ، لكنها مملوءة من كل هم وغم ، وحزن وقلق . ^ (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربناً أخربنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مسكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وعند ا^ مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال) ^ يقول تعالى لنبيه محمد صلى ا^ عليه وسلم : ! 2 2 ! أي : صف لهم تلك الحال ، وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب ، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله ، ! 2 2 ! بالكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصي ، نادمين على ما فعلوا ، سائلين للرجعة في غير وقتها ، ! 2 2 ! أي : ردنا إلى الدنيا ، فإننا قد أبصرنا ، ! 2 2 ! و ا^ يدعو إلى دار السلام ! 2 2 ! وهذا كله ، لأمل التخلص من العذاب الأليم ، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد ! 2 2 ! . ولهذا يوبخون ويقال لهم : ^ (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) ^ عن الدنيا ، وانتقال إلى الآخرة ، فها قد تبين لكم حنثكم في إقسا مككم